أمين الرَّيحاني

نصوص مختارة

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

الفصل الثالث [من كتاب خالد]: الوَجْد الذاتيّ

يبدو لنا أنّ الهدف الرئيسيّ الخالد هو تطعيم النشاط المتّقد لكلّ من أوروبّا وأميركا على طمأنينة الشرق، وتطعيم روحانيّة الشرق، بمادّيّة الغرب.ولكنّه غالبًا ما يقدّم لنا، في تطوافه الفكريّ وتهويمات أفكاره، برهانًا جديدًا على الحقيقة البدهيّة القائلة بأنّ ما من عنصرين متعارضين يلتقتان ويندمجان دون أن يفقد كلاهما هوّيّته الأصليّة. يمكنك أن تضع لقمة القناعة في فم الطموح، على سبيل المجاز، وأن تمشي الهوينا في سيرك العقيم بين حقول القمح الشاسعة والتي تئنّ تحت المحراث المسنّن بمائة سنّ وبين حدائق البهجة المنتشية بالتعبّد والانغماس في الشهوات الحسّيّة. ولكنْ زاوجْ بين الطموح والقناعة. فإنّك تحصل على جحش (ولد الأتان من الحصان) اللامبالاة وغول القدريّة. نحن لا نقول إنّ اللاّمبالاة في مراحل وممرّات معيّنة من الحياة هي غير معافاة، وإنّ القدريّة غير قويّة. بل نعتقد أنّهما، على حدّ سواء، عوامل قويّة في التجارة والتبادل، كقوّة العناد والحساب. ويتساءل خالد: "ولكن، ألا يوجد في حديقة البهجة من مكان لحقل القمح؟ ألا يمكننا تطبيق القوس على أسلاك التلغراف في العالم الذي جعلها أداة للموسيقى كما لتسعيرة الأسهم في البورصة؟ أليس بمقدورنا أن نبسّط الحياة كما نقوم بتبسيط ماكينات الصناعة؟ ألا يمكننا تكريس هيكلها لثالوث العبادة والفنّ والعمل، أو لثالوث الدين والرومانس والتجارة؟".

يبدو هذا الأمر وكأنّه استراحة إنجيل خالد ومحطّ أفكاره. ومن خلال متاهة الشكّ والتناقض، تتراءى ذروةُ الإيمان التي من شأنه بلوغها. وغالبًا في هذه العتمة المتاهة، حيث يكشف شعاعٌ من الضوء صادر عن إحدى فجوات الفكر أو الخيال ناسكًا هنا في صومعته وفنّانًا هناك في مرسمه، أو تحتهما ثريًّا عظيم الثراء في لهوه وعربدته، وفوقهما سمسارًا في بورصة الأسهم — لقد توقّفنا هنيهة لكي نطرح السؤال عن هذه المتناقضات الصارخة في حياته وفكره. ومن شأنه على الدوام إعطاء الجواب التالي:" تحركتُ وانتقلتُ مرارًا وتكرارًا بين قطبين متطرّفين. وغالبًا ما اشتغلتُ ونمتُ في معسكرين متعارضين. لذا، فلا تتوقّعوا منّي شيئًا يشبه التماسك الذي تتوسّله أكثريّة الجنس البشريّ في تكوين حياتها والتحامها. فالفكر العميق غالبًا ما يبدو– وإن يكن ليس على الدوام– غير متماسك للوهلة الأولى. إن شدّة الروح وسلبيّتها هما طبيعيّان في تجاذبهما ونفورهما، مثل العناصر التي لا يتبدّى تناغمها وانسجامها إلّا على السطح. فالتماسك سطحيّ وضيّق وأحاديّ الجانب. إنّني طموح وقنوع في آن معًا. طموحي هو طموح الأرض، تلك الأرض المنتجة والمحيية على الدوام، في تنفيذها لمشيئة الله. وفي مقارعتها لبراثن الزمن. وقناعتي هي قناعة أشجار الصنوبر الشامخة التي تصيب مصيرًا واحدًا في

الظلال والإشراق، في الهدوء والعاصفة، في الشتاء كما في الربيع. الطموح والقناعة هما بمثابة الليل والنهار في رحلة حياتي. فالنهار يفسح المجال أمام ثمار السلوان التي يجلبها الليل. ويعطيني الليل كأسًا من القناعة الودّيّة لكي يفي بالوعد من يوم إلى اليوم.

"وفيما أتَصَبّب عرقًا في الممرّ المتمعّج، لا أفتأ أبدًا عن التعلّق بالشعور الذي تغذّيت فيه. فالغرب يعني بالنسبة لي الطموح. والشرق يعني القناعة: قلبي يقيم دائمًا في الواحد منهما، وروحي في الآخر. ولا أكترث للحرّيّة التي لا تحرّر الإثنين. أنا لا أسعى وراء خير الواحد منهما ورفاهه دون الآخر. ولكن خلافًا لأجدادي، فالروحيّ عندي يجب ألّا يحدّه الطبيعيّ. بل ينبغي له الارتفاع بعيدًا فوقه، وتجاوزه أو البقاء تحته لإشباعه ومدّه بأسباب الحياة، ولتنقية ما يؤلّف في الطبيعة الخارجيّة مجرّد رمز لما هو غير منظور. وليست فكرتي عن الروحيّ تطويرًا يتعارض مع الطبيعة وعلى نحو معادٍ لنواميسها ومزاعمها، كما هي الحال في اليهوديّة والمسيحيّة.

"فالروحيّ والماديّ يتّحدان ويلتفّان الواحد منهما حول الآخر بشكل لا ينفصم، حتّى إنّني لا أستطيع تصوّرهما منفصلين ومستقلّين. وكلاهما بالمعنى المجرّد لا معنى لهما وغير مؤثّرين بدون الوعي. إنّهما قوى عمياء بكماء، مواكب أبّهة جميلة ومتوحّشة، تستعرض نفسها دون هدف أو تصميم من خلال اتّساع "اللامكان" و"اللازمان"، ما لم يتمّ تحصينها وتغذيتها بالفكر، أي بالوعي المنَشَّط والمصَفَّى. يمكنك أن تلقّحها بالفلسفة، وأن تغذّيها بالفنّ. فكلاهما يصدران عنها، ويظلّان مثل سحب تنزلق وسراب يلمع وغبار متجوّل، حتّى يجدان أنّ أسّهما ونصيرهما في الإنسان.

"لذا أقول لكم إنّ الإنسان، أي الوعي المنَشَّط والمصَفَّى- وبكلام آخر الفكر- هو وحده حقيقيّ وأبديّ. والإنسان هو الأسمى، فقط متى كان الأسّ الصحيح للطبيعة والروح والله: تلك الينابيع الإلهيّة الثلاثة التي يصدر عنها وتمدّه بأسباب الحياة، وعليه أن يرجع إليها. فالطبيعة والروحيّ بدون هذا العقل المتجسّد، وهذا الكائن المتعلّق بجدار الجسد، سواء سمّي إنسانًا أو ملاكًا أو قردًا، هما مثل حيوان القاقوم بفروه الأبيض على شكل من الشّمع، والعنصر الإنسانيّ والعقل الأسّ والملكات العقليّة والحسّيّة، هذه لا تكون كاملةً ومتسامية ومقدّسة، إلّا في حالة من التوسّع المستمرّ، إلّا في حين يكون التناغم فيما بينها وروابط الألفة بينها وبين الطبيعة، متكاملًا ونقيًّا. فالروحيّ يجب الّا يكون متحرّرًا من الجسديّ، ولا يمكنه ذلك، وحتّى من الحسّيّ. والحياة الحقيقيّة، الحياة الممتلئة نقاءً ونشاطًا وسموًّا، هي تلك التي تُمنَح فيها مجالات حرّة وغير محدودة لكافة التّطلّعات النبيلة والسامية لدى الروح والجسد، بالنّظر إلى تطوير الصفة الإلهيّة في الإنسان، وتحقيق الآمال الرومنطيقيّة والماديّة إلى حدّ ما لكلّ من العِرق ولله والطبيعة والهوى – الهوى والروح والطبيعة والله – في مثل هذه اللّوحة البانوراميّة من شأني أن أرسم صورة لحياة كائن أعلى ومتطوّر. ومتى افْتُقِدَتْ أيّ من هذه العناصر، جاءت الحياة ناقصة وغير نقيّة ويعوزها المستوى المطلوب.

"أنا لا أؤمن بالرجال الذين حبلت بهم الأرحام بطريقة لامبالية، ولو جاز القول على أساس نظام ذرائعيّ، وحين تستقبل الزوجة رجلها في الفراش وكأنّها ترحّب بضيف مملّ دُعي لتناول فنجان الشاي بعد الظّهر. إنّ اتّحاد شعلتين اثنين أو محبوبين يتّقدان حبًّا وشوقًا هو

وحده الكفيل بإنتاج الثالث. لكنّ الشعلة والاسم ينتجان ارتعاش الذبالة والامتصاص ليس إلّا. آه، ليت أبناء العِرق البشريّ يولدون كلّهم مثل طائر الفينيق في نيران الهوى النبيل والمقدّس، ولو جاز لي القول، في مطهر الحبّ. ويا له من عِرق، يا له من عِرق يتوفّر لدينا، يا لهم من رجال ويا لهنّ من نساء! هكذا ينبغي الحَبَل بأبناء الأرض، ليس على أساس نظام ذرائعيّ، أو بطريقة ترفع شعار "المسألة لا تعنيني". أنْ أعتقد باستحضار الروح، وبأنْ يحلم المرء بآلهة جبل الأوليمب قليلًا، وبآلهة الأعماق السحيقة، قليلًا أيضًا، قبل الاتصال الجسديّ. ولنأخذ المسألة على محمل الجدّ ونفعل هذا الأمر بالرغم ممّا يقوله سقراط العجوز عن الحكمة واللّياقة في أن يقترب الرجل من زوجته متسلّحًا بالتّعقّل والحذر والوقار...".

وهكذا، لو لم نبادر غالبًا إلى الترحيب والتحيّة فإنّ خالدًا مثل صيّاد يلاحق طريدته، من شأنه أن يضيّع نفسه في الرطوبة الكئيبة وغير المطروقة داخل الغابة. ولو لم نمنعه في بعض الأحيان، متمسّكين بأذيال ثوبه، لأقدم على ملاحقةٍ يائسة لشبح أفكاره حتّى في تلك الأعماق بالذّات حيث كان سقراط ومونتين يشعران دومًا بأنّهما في بيتهما. ولكنّ خالدًا، ذلك الصبيّ الصاخب وشديد الانفعال وكثير الجَلَبة، ما هو حظّه في انتزاع غرائزه البربريّة من سياج الفلسفة الشائك؟ ولو لم يستشهد بسقراط في تلك الفقرة الأخيرة، لكان مصيرها الحذف والشطب. نحن لسنا في ضياع تامّ إزاء المعنى الدقيق للياقة في هذا العصر المحتشم والرزين. ولكن مهما كانت الفكرة باهتة وسقيمة، فإنّها تكتسب من جديد لونها وعافيتها عندما تتنفّس الهواء الأدبيّ. فالاحتشام المتطرّف والمتكلّف لا يسعه إلّا أن يكذّب نكهة الانغماس في الفجور حين يتمّ إضفاء نكهة كلاسيكيّة عليه. وفضلًا عن ذلك، إذا كان سقراط ومونتين يتحدّثان بصراحة عن قضايا منتصف الليل هذا، فلماذا لا يدلي خالد بدلوه، متى كان لديه شيء جديد ليقوله، أو أيّة نصائح حسنة ليقدّمها. ولكن ما مدى الجودة والجدّة في آرائه، يجب أن نرى ذلك.

جميل جدًّا أن يتحدّث خالد عن "استحضار الروح قبل الاتصال الجسديّ"، ولكنّ الذين يستطيعون التباهي بتجربة أعمق في مثل هذه المسائل سوف يجدون في عبارة سقراط المأثورة، والتي يستشهد بها مونتين، النقطة الأساسيّة بالذات من العقل والحكمة. فالحكماء الأقدمون اتّصفوا ببعد النظر على غرار الزمن الماضي البعيد الذي انقضى عليهم. وكما قيل مرّة بإنصاف: الاعتدال هو تنفّس الفيلسوف. ولكنّ خالدًا، مع أنّه يستحضر دائمًا نجمَ التعالي البعيد للضوء، فلا يسعه أن يتّخذ لنفسه مثل هذا اللقب الرفيع. وهدف التعالي، كما نفهمه نحن هو: توسيع جميع الملكات وتخفيض مطالب المجتمع والفرد إلى أدنى حدّ. والمسافة التي تفصل خالد عن مدار هذا النجم العظيم يبدو أنّها تتنوّع طبقًا لأمزجته. وهذه الأمزجة تختلف تبعًا لترجّحات القمر ودورانه. وأنت يا خالد المهَلْوَس والممسوس، إنّ جهودك الرامية إلى تحقيق التناغم والانسجام والألفة لن يكتب لها النجاح دائمًا. هذا هو رأينا في المسألة. وجلّ ما نعلمه أنّ القارئ الذي لا يحترم عادةً المحرّرين، يمكنه أن ينازع هذا الرأي وينتقده.

لا يستطيع المرء أن يحافظ على التوازن في أفكاره إلّا متى وقف بثبات عند نقطة الدائرة (المركز أو الأوسط). ولكنّ خالدًا قلّما يتحدّث عن التوازن. فهو لا يكترث لما يحلّ به عند السقوط على أيّ جانب من جانبي السياج، طالما أنّه يعرف ماذا يقبع خلفه. ومع ذلك، لا

يمكننا أن نتصوّر كيف تكون ممكنةً ألفة العقل والروح مع الحواسّ والتناغم بين هذه الثلاثة والطبيعة، ما لم يتمّ تبرير ذلك من خلال الإنسان المتفوّق بالذّات (السوبرمان، الإنسان الأعلى) وهو أشدّ ما يخشاه خالدًا مثلما أنّه يلقي عليه غالبًا نظرة إعجاب متريّثة. وهكذا يجب علينا إمّا الارتفاع إلى مرتبة وعي أعلى على أنقاض وعي أدنى و"لاوعي" بالأحرى، أو المضيّ في المظهر الخارجيّ والمحاكاة، في التطلّع وفرز العَرَق والعذاب، إلى أن يأتي دورنا. فالموت لا يتنكّر لأحد من الناس. وفي هذه الأثناء نلتفت إلى رابسوديات[1] خالد، التي نظمها في طريق عودته إلى المدينة، محاولين ترديد صداها.

ينشد خالد: "على الطريق العامّ للروح الكونيّة، والعالم، العالم بأكمله ينتشر أمامي، مثيرًا ومشعًّا، مغنّيًا للحرّيّة والإيمان والأمل والصحّة والقوّة والفرح. عودة إلى المدينة- في المدينة حيث الحقيقة والإيمان والصدق والحكمة تعاني ما تعانيه من العذاب و تتصارع على الدوام وتحرز الإنتصار. أنا لا يهمّني الأمر إذا كانت روح العقل والقوّة والحرّيّة والثقافة، وهي التي ينبغي لها إكمال دورتها حول الأرض، تخضع دائمًا لسيطرة غريزة المصلحة الشخصيّة. لا بدّ من حصول ذلك. إنّه أمر حتميّ. لكنّ غريزة المصلحة الشخصيّة تذهب بصحّة الجسد. فالجسم السياسيّ يموت، والأمم تنشأ وتظهر ثمّ تسقط وتنهار. أمّا الروح الأبديّة، وهي بمثابة الجدّ الأعلى أو السلف لكلّ المثل العليا، فإنّها تنتقل إلى أيدٍ أفضل أو أسوأ، ماضيةً في تصحيح نفسها وتعزيز قوّتها خلال المسار.

"الشرق والغرب، المذّكر والأنثى لدى الروح (الكونيّة)، والجدولان العظيمان حيث يتمّ إنعاش جسد الإنسان وروحه وتقويتهما وتنقيتهما- أغنّي الإثنين، أسبّح وأهلّل لهما، وأكرّس لهما حياتي، ولأجلهم سوف أعمل وأتألّم وأموت. إنّ الكائن الاشدّ تطوّرًا على نحو رفيع ليس أوروبيًّا ولا شرقيًّا. بل هو بالأحرى من يشارك في الصفات والمزايا الممتازة لكلّ من العبقريّ الأوروبيّ والنبيّ الآسيويّ.

"يا أمم الغرب الجبّارة، أعطني وسائل الراحة المادّيّة في الحياة. وأنت أيّها الشرق، يا شرقي، دعني أشارك في ميراثك الروحيّ. أعطني يدكِ، يا أميركا. وأنتِ، يا آسيا أيضًا. أنتِ أرض الأصالة، حيث ظهر النور وبزغت الروح للمرّة الأولى، لا تأنفي من الهبات التي تأتيك بها أمم الغرب، وأنتِ، يا بلاد التنظيم والقوّة، حيث العلم والحرّيّة يحكمان بلا منازع، لا تأنفي من خيرات مشرق الشمس.

"إذا كانت مكتشفات العلم ومنجزاته سوف تجعل جسم الإنسان أكثر نظافة وعافية وقوّة وسعادة، فإنّ النبع الشرقيّ الذي لا ينضب من الجمال الرومنطيقيّ والروحيّ لن يتوقّف أبدًا عن منح روح الإنسان ما تتوق إليه أبدًا من الاطمئنان والسلوان. وتذكّري، يا أوروبّا، تذكّري، يا آسيا، أنّ الثقافة الأجنبيّة هي ضروريّة لروح الأمّة مثلما هي التجارة الخارجيّة ضروريّة لصناعتها. وإلّا، فإنّ مادّيّتكِ، يا أوروبّا، وروحانيّتكَ، أيّها الشرق- مهما كانت فعّالة ومنيعة، ومهما غاصت أسسها في العمق، ومهما اتّسع البناء الفوقيّ القائم عليها- هي مبتذلة وضيّقة وخسيسة، وبكلمة واحدة، إنّها لا شيء بل محدودة.

[1] جزء من قصيدة ملحميّة صالح للإلقاء على مسمع من الجمهور، وهو تعبير حماسي عن الابتهاج أو الطرب، ويُطلَق عادةً على كلام أو أثر أدبي زاخر بالإنفعال العاطفي.

"لا الرقّ الدينيّ ولا الرقّ الصناعيّ من شأنهما أن يتحكّما إلى الأبد بمصير العالم ويخضعانه لعبوديّة سياسيّة، كلّا وحاشا! فالعالم سوف يتحرّر من السلطة المطلقة والعمياء والطاغية لكلّ من قباطنة الصناعة والكهنة الكبار في الهيكل. ومن ذا الذي سوف يساعد على تحرير العالم؟ العلم وحده يمكنه القيام بذلك. العلم والإيمان يجب أن يقوما بالمهمّة.

"أردّد معك، يا غوته، تلك العبارة: "الضوء، مزيدًا من الضوء". وأقول معك، يا تولستوي: "الحبّ، مزيدًا من الحبّ". وأردّد معك، يا إبسن: "الإرادة، مزيدًا من الإرادة"! الضوء والحبّ والإرادة– كلٌ منها ضروريّ كالآخر. والواحد منها بمفرده ينطوي على خطر بدون الآخرَين. فالضوء والحبّ والإرادة هي ينابيع الحيويّة والأزليّة الثلاثة للحياة الكونيّة الأسمى والأصدق والأنقى.

"الضوء والحبّ والإرادة– سوف أضع على هامتكِ، يا مدينتي، تيجانًا من المرجان واللآلئ المستخرَجة من بحرهم. وفي هذه الجداول سوف أقوم بتعميد ابنائك. والعقل والقلب والروح من الإنسان سوف أجعل معموديّتها في هذه البحيرة الجبليّة، هذا الأردنّ العالي للحقيقة، على الضفاف المزدهرة وذي الرائحة للعلم والدين، وفي الهيكل المقدّس للعقل والإيمان.

"سوف أقوم بتعميد الجنس البشريّ كلّه في بحيرات الضوء والحبّ والإرادة. آه، يا إخوتي الأوروبّيين ، القوّة والمجد في هذا وحده، ويا إخوتي في آسيا، الإيمان والفرح– في هذا وحده.

"الهدسون والمسيسيبي والأمازون، والتيمس والسين والراين، والدانوب والفرات والكنج– كلّ نهر من هذه الأنهار العظيمة سوف يكون "نهر الأردنّ" في المستقبل. ففي كلّ واحد منها سوف تجري سويّة أنهار الضوء والحبّ والإرادة. وفوق مياه كلّ منها سوف تبحر مراكب الأماني والآمال السامية للجنس البشريّ.

"أجيء إليكِ الآن، يا مدينتي، لكي أتعمّد. أجيء لكي أطفئ عطشي في نهر "أردنّكِ" . ها أنذا آتٍ لإطلاق مركبي الشراعيّ الصغير، وللقيام بعملي الضئيل، ولتسديد ديني.

"سوف أرفع في ميادينكِ العامّة، يا مدينتي، نُصُبًا تذكاريّة للطبيعة. وفي مسارحكِ، للشعر والفكر. وفي أسواق بازاراتكِ، للفنّ. في بيوتكِ، للصحّة والعافية؛ وفي هياكلكِ للعبادة. وفي قاعات محاكمكِ، للسلطة والرأفة. وفي مدارسكِ، للبساطة. وفي مستشفياتكِ، للإيمان. وفي قاعاتكِ العامّة، للحرّيّة والثقافة. وكلّ هذه النُصُب، بدون الضوء والحبّ والإرادة، تبقى أمورًا جوفاء وحماقات طنّانة فارغة. إذ بدون الضوء والحبّ والإرادة سوف يلعنك حتّى كبار أثريائكِ في نهاية المطاف. ومع هؤلاء، سوف يبادر حمّالوكِ تحت أعبائهم الثقيلة إلى رفع شكرهم للسموات التي تشمخ تحتها قبابكِ وأبراجكِ ومنائركِ".

أمين الرَّيحاني،

كتاب خالد، ترجمه من الإنكليزيّة إلى العربيّة د. أسعد رزّوق، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٦، ص ٢٤٩–٢٥٧.

###

الأناشيد الثلاثة[1]

إلى الإنسان

مهما جزل خيرك
ومهما تفاقم شرّك
لا أزال أخاك.
مهما عليْت في مدارج الحياة
ومهما تسفّلْت لا أزال أُخلص لك،
وأؤمن بك وأحبّك
أَفَلَسْتُ عالمًا بما فيك، بما يأسرك وبما يناديك؟
ألم تُدمِني تلك البراثن؟
أَوَلم تشفني تلك الأجنحة؟
تعالَ إذًا، تطلّعْ إلى العلياء
ها هو الهيكل الكلّيّ الأكبر وقد جُعل محطًّا لنا لا محجّة
ولقد تشيّد عند معالم المشرق والمغرب
فوق الجبال المشرفة على الغرب تحتها وعلى الشرق
هيكل الأمم جمعاء لا تُعْبَد فيه آلهة كاذبة باطلة
فإنّ آلهة الفلسفة واللاهوت
والآلهة التي صوّرها الإنسان على صورته البشريّة الفانية
وآلهة الكهّان والأنبياء
لمدفونة كلّها تحت ينبوع الهيكل وقد غدا مذبحًا ومحرابًا
ينبوع الهيكل الذي تتدفّق منه روح بارينا الأزليّة
بارينا المحيي المميت
يغضي الطرف حين تنشب البراثن في قلبنا
ويبتسم حين تظهر الأجنحة في جروحنا.
وحقًّا إنّ ربّ الدموع والابتسام ربُّنا

[1]. من كتاب خالد وهو مقسَّم إلى ثلاثة أقسام، وقد افتتح كلّ قسم بأنشودة رمز فيها إلى معناه: أوّلها إلى الإنسان، والثانية إلى الطبيعة، والثالثة إلى الله، وقد ترجمها الرَّيحاني من الإنكليزيّة إلى العربيّة عام ١٩١٣ على الأرجح.

وينبوعه في ذا الهيكل فائض مدى الدهر
قف ها هنا، وارتوِ،
قف ها هنا وارتوِ.

إلى الطبيعة

أيتّها الأمّ الأزليّة، السماويّة الجهنميّة،
المكتنفة الأكوان،
المغذّية أحياءها، الملتهمة أبناءها،
إنّي لكِ أبدًا سرمدًا.
أيتّها الآلهة المتوجّة بالنجوم
المنتعلة الدرر واللآلي،
إنّي لكِ أبدًا سرمدًا.
ولئن كنْتُ وليد هزيمكِ وجيشانكِ
أو ثمرة من ثمار أحشائكِ
أو شعاعًا روحيًّا من نورِكِ
أو فِلْذَة روحيّة صمّاء عمياء كُوّنَتْ من دمعكِ وابتسامكِ
أو يراعة آبدة من العقل الذي فيكِ أو في ما فوقكِ
فإنّي لكِ أبدًا سرمدًا.
ها أنا ذا أمامكِ،
أخرّ ساجدًا عند قدميكِ،
أسلّم نفسي وكلّي إليكِ.
المسيني أيضًا بقضيب سحركِ الإلهيّ
أطرحيني ثانيًا في بوتقتكِ السرّيّة
أعيدي صنعي ولا تحرميني ممّا فيكِ شيئًا.
اكثري فيّ من سكينة جبالكِ
وسموّ سمائكِ وهول بحاركِ
وقدس أحراجكِ وصفاء ينابيعكِ
وشمم أرزكِ وثبات الراسيات من أرضكِ
عانقيني واهمسي في أذنيّ بعض أسراركِ.

املئي حواسّي وكياني من نفحاتكِ ونسماتكِ،
افتحي أمامي أعماق روحكِ المخيفة الهائلة،
إطرحيني على صدر عواصفكِ،
يَسْرِ إليّ بعض ما فيكِ من قوّة وعزّ
وعظمة وجلال،
اغمسيني في مغيب شمسكِ
علّني أفوز ببعض شيء من إلهيّات فنونكِ
أنشديني نشيد السرّ أيّتها الأمّ الأزليّة.
كأسًا من حبّكِ السماويّ الجهنميّ،
فإنّي لأقبل الرأفة والعسف منكِ
لأعرف السرّ في عسفكِ ورأفتكِ.
امسحيني بزيت البداهة المقدّس
لأظلّ قمينًا لكِ.
ولا تصدّيني ولا تجفيني،
فيضمحلّ فيَّ الصميم من الحبّ،
العميم من العطف والمبرّة.
يا أيّتها الأمّ الأزليّة
مليكة العرش الأزرق والقبّة الزرقاء،
إنّي أبتهل إليكِ وأقبّل رجليكِ
وأطرح بنفسي بل بكلّي لديكِ،
ولست متشوّقًا إلى ما عسى أن يكون منكِ
فلئن صرْتُ مجمرة في يد كاهنكِ الأكبر
أو بخورًا منّي في المجمرة
أو براعة في هيكلكِ
أو سراجًا مطفيًّا في محرابكِ
أو لو صرت كوكبًا في منطقتكِ
أو شمسًا في تاجكِ
أو لؤلؤة في نعلكِ
لتريني قانعًا راضيًا لأنّني متيقّن
أنّ ذلك خير كلّه وسلام.

إلى الله

عبثًا طلبْتُكَ في أديان الناس
عبثًا بحثْتُ عنكَ في سرادب عقائد الناس
ولكنّي لقيت في كتب العالم المقدّسة بعض آثار سماويّة طامسة
فلقد توضّح لي حرف ساكن من اسمكَ في "القيدا"[1]
وحرف في "الزند آڤستا"[2]
وحرف في الإنجيل
وحرف في القرآن
أجل- وفي كتاب الجمعيّة العلميّة الملكيّة
وسجلّات جمعيّة المباحث النفسيّة
بعض الحركات التي لا يحسن الطفل البشريّ أن يحرّك
بها الأحرف الساكنة من اسمكَ
وأنّى لأمم الأرض وهي في طفولة الحياة أن تحسن النطق به
مَن يهدينا إلى تلك الهمزات
همزات الوصل الإلهيّة
التي تجمع بين الكواكب البعيدة المتقابلة
في أطراف الأفلاك السماويّة
فلقد خُطَّت على نقاب السرّ الأبديّ كلمات واضّحت
ثمّ خُطَّت واضّحت
كلّ أمّة من أمم الأرض أدركت حرفًا من هذا الطِلَسْم العظيم
لكنّ الحركات وهمزات الوصل لا بدّ أن يأتي بها علماء المستقبل
لتُحيي جمودًا في أحرف الكتب المقدّسة الساكنة
وتبعث فيها سلاسة الماء والهواء
وتزيل اللّكنة من لسان هذا البشريّ الطفل ومن قلبه.

أمين الريحاني،
المؤلفات العربيّة الكاملة، ط.١، المجلّد ٤، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠١٦، مقطع رقم ٨٠-٨٧، ص ٣٩٣١-٣٩٣٧.

[1]. كتاب من كتب الهندوس المقدَّسة.
[2]. كتاب لزرادشت واضع ديانة المجوس قديمًا والفرس (Parsis) اليوم.